أو قاعدا أو قائما وفائدة الترديد تعميم الدعاء لجميع الأحوال أو لأصناف المضار فلما
كشفنا عنه ضره مر مضى على طريقته واستمر على كفره أو مر عن موقف الدعاء لا يرجع إليه
كأن لم يدعنا كأنه لم يدعنا فخفف وحذف ضمير الشأن كما قال ونحر مشرق اللون كأن
إلى ضر مسه إلى كشف ضر كذلك مثل ذلك التزيين زين للمسرفين ما كانوا يعملون
من الانهماك في الشهوات والإعراض عن العبادات ولقد أهلكنا القرون من قبلكم يا أهل مكة لما
ظلموا حين ظلموا بالتكذيب واستعمال القوى والجوارح لا على ما ينبغي وجاءتهم رسلهم بالبينات
بالحجج الدالة على صدقهم وهو حال من الواو بإضمار قد أو عطف على ظلموا وما كانوا ليؤمنوا
وما استقام لهم أن يؤمنوا لفساد استعدادهم وخذلان الله لهم وعلمه بأنهم يموتون على الكفر واللام
لتأكيد النفي كذلك مثل ذلك الجزاء وهو إهلاكهم بسبب تكذيبهم الرسل وإصرارهم عليه بحيث تحقق أنه
لا فائدة في إمهالهم نجزي القوم المجرمين نجزي كل مجرم أو نجزيكم فوضع المظهر موضع الضمير للدلالة على
كمال جرمهم وأنهم أعلام فيه ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم استخلفناكم فيها بعد
القرون التي أهلكناها استخلاف من يختبر لننظر كيف تعملون خيرا أو شرا فنعاملكم على مقتضى أعمالكم وكيف
معمول تعملون فإن معنى الاستفهام يحجب أن يعمل فيه ما قبله وفائدته الدلالة على أن المعتبر
في الجزاء جهات الأفعال وكيفياتها لا هي من حيث ذاتها ولذلك يحسن الفعل تارة ويقبح أخرى وإذا
تتلى عليهم آياتنا قال الذين لا يرجون لقاءنا يعني المشركين ائت بقرآن غير هذا
بكتاب آخر نقرؤه ليس فيه ما نستبعده من البعث والثواب والعقاب بعد الموت أو ما نكرهه من معايب
آلهتنا أو بدله بأن تجعل مكان الآية المشتملة على ذلك آية أخرى ولعلهم سألوا ذلك كي يسلموا
إليه فيلزموه قل ما يكون لي ما يصح لي أن أبدله من تلقاء نفسي من قبل نفسي وهو
مصدر استعمل ظرفا وإنما اكتفى بالجواب عن التبديل لاستلزام امتناعه امتناع الإتيان
إن أتبع إلا ما يوحى إلي تعليل لما يكون فإن المتبع لغيره في أمر لم يستبد بالتصرف فيه
بوجه وجواب للنقض بنسخ بعض الآيات ببعض ورد لما عرضوا له بهذا السؤال من أن القرآن
كلامه واختراعه ولذلك قيد التبديل في الجواب وسماه عصيانا فقال إني أخاف إن عصيت
ربي أي بالتبديل عذاب يوم عظيم وفيه إيماء بأنهم استوجبوا العذاب بهذا الاقتراح قل
لو شاء الله غير ذلك ما تلوته عليكم ولا أدراكم به ولا أعلمكم به على
وعن ابن كثير برواية قنبل والبزي من غير ألف ولأدراكم بلام التوكيد أي لو شاء الله ما تلوته عليكم
ولأعلمكم به على لسان غيري والمعنى أن الحق الذي لا محيص عنه لو لم أرسل به لم أتل عليكم ولا أدراكم
على لغة من يقلب الألف المبدلة من الياء همزة أو على أنه من الدرء بمعنى الدفع أي ولا أجعلكم

بتلاوته خصماء تدرؤونني بالجدال والمعنى أن الأمر بمشيئة الله لا بمشيئتي حتى أجعله على نحو ما تشتهونه
ثم قرر ذلك بقوله فقد لبثت فيكم عمرا مقدار عمر أربعين سنة من قبله من قبل القرآن لا أتلوه
ولا أعلمه فإنه إشارة إلى أن القرآن معجز خارق للعادة فإن من عاش بين أظهرهم أربعين سنة
لم يمارس فيها علما ولم يشاهد عالما ولم ينشئ قريضا ولا خطبة ثم قرأ عليهم كتابا بذت فصاحته فصاحة
كل منطيق وعلا على كل منثور ومنظوم واحتوى على قواعد علمي الأصول والفروع وأعرب عن أقاصيص
الأولين وأحاديث الآخرين على ما هي عليه علم أنه معلم به من الله تعالى أفلا تعقلون
أفلا تستعملون عقولكم بالتدبر والتفكر لتعلموا أنه ليس إلا من الله فمن أظلم ممن افترى
على الله كذبا تفاديا مما أضافوه إليه كناية أو تظليم للمشركين بافترائهم على الله في قولهم إنه
ذو شريك وذو ولد أو كذب بآياته فكفر بها إنه لا يفلح المجرمون ويعبدون
من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم لأنه جماد لا يقدر على
نفع ولا ضر والمعبود ينبغي أن يكون مثيبا ومعاقبا حتى تعود عبادته بجلب نفع أو دفع ضر
ويقولون هؤلاء الأوثان شفعاؤنا عند الله يشفع لنا فيما يهمنا من أمور الدنيا
وفي الآخرة إن يكن بعث وكأنهم كانوا شاكين فيه وهذا من فرط جهالتهم حيث
تركوا عبادة الموجد الضار النافع إلى عبادة ما يعلم قطعا أنه لا يضر ولا ينفع على توهم أنه ربما
يشفع لهم عنده قل أتنبئون الله أتخبرونه بما لا يعلم وهو أن له شريكا وفيه تقريع
وتهكم بهم أو هؤلاء شفعاء عنده وما لا يعلمه العالم بجميع المعلومات لا يكون له تحقق في
السموات ولا في الأرض حال من العائد المحذوف مؤكدة للنفي منبهة على أن
ما يعبدون من دون الله إما سماوي أو أرضي ولا شيء من الموجودات فيهما إلا وهو حادث
مقهور مثلهم لا يليق أن يشرك به سبحانه وتعالى عما يشركون عن إشراكهم أو عن الشركاء
الذين يشركونهم به وقرأ حمزة والكسائي هنا وفي الموضعين في أول النحل والروم بالتاء
وما كان الناس إلا أمة واحدة موحدين على الفطرة أو متفقين على الحق
وذلك في عهد آدم عم إلى أن قتل قابيل هابيل أو بعد الطوفان أو على الضلال في فترة من الرسل
فاختلفوا باتباع الهوى والأباطيل أو ببعثة الرسل فتبعتهم طائفة وأصرت أخرى
ولولا كلمة سبقت من ربك بتأخير الحكم بينهم أو العذاب الفاصل بينهم إلى
يوم القيامة فإنه يوم الفصل والجزاء لقضي بينهم عاجلا فيما فيه يختلفون
بإهلاك المبطل وإبقاء المحق ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه
أي من الآيات التي اقترحوها فقل إنما الغيب لله هو المختص بعلمه فلعله يعلم في إنزاله